الهـــذيان

للأســـتاذ نجيب محفوظ

أوشك الفجر أن يطلع ، وتصايحت الديكة إيذاناً بطلائع النور ، فأخلدت الحجرة إلى السكون والصمت ، كأنما أسلمها أنين المرض الموجع وتأوه الإشفاق الأليم إلى الهمود . كانت ترقد على الفراش امرأة شابة يبدو من اصفرار وجهها وذبول خديها وشفتيها وتضعضع كيانها أنها تعاني وبال مرض يهتصر شبابها . وعلى فراش قريب رقد شاب في مقتبل العمر يثقل جفنيه السهاد، ويأبى القلق أن تلتقي أهدابهما، يطالع وجه المريضة في حزن ثم يعطف رأسه إلى مهد جديد فيجري الحنان في عينيه القابلتين ويتمتم في رجاء صادق : « اللهم صن حياة الأم المسكينة ... وطفلتنا البريئة » . وكان الشاب من ذوي القلوب الرقيقة والنفوس الندية بالرحمة والعطف . وكان على عهد صباه يلذ لرفاقه أن يدعوه رجل البيت ، لما طبع عليه من النفور من المجتمعات والأندية ، والاشتراك في المظاهرات التي تستهوي أفئدة أقرانه ، والانجذاب نحو البيت بسبب وبغير سبب ؛ فكان يقضي نهاره في الحديقة يسقي أشجار البرتقال والليمون ، أو في السطح بين الدجاج والحمام ؛ فإذا كان الخميس أعطى ذراعه لشقيقته ومضيا معاً إلى السينما . وقد ذاك أخذ يفكر في الزواج تفكيراً جدياً منذ اليوم الذي عين فيه مهندساً بمصلحة الأشغال العسكرية . وراح يقتصد من مرتبه ما يقوم بنفقات الزواج من مهر وشبكة وهدايا وفرح ، كما كان يفعل شباب الجيل الماضي . فلم يكد يمضي عليه عامان خارج المدرسة حتى تزوج ، ولم يدهش أحداً أن تنعطف هكذا سريعاً إلى الزواج هذه النفس المطمئنة إلى الحياة البيتية منذ نعومة الصبا ، ولكنه كان سيء الحظ ، فما كاد يستدير عام ويستقبل طفلة حتى أصيبت زوجه بحمى النفاس فزلزل بيته الهادئ المطمئن وارتجت حياته السعيدة . وقد عرف منذ اليوم الأول للمرض ما الخوف وما الإشفاق وما الجزع ، واندفع إلى استدعاء أعظم الإخصائيين من الأطباء حملة الباشوية والبيكوية غير مبق على مال أو صان بثمين ، حتى اضطر إلى بيع المذياع وساعته الذهبية ، ولو طلب إليه أن ينقل دمه إليها لأداه إلى آخر قطرة ... وبالغ في ذلك ، فطلب من مصلحته إجازة كيلا يفارق المريضة ، وكان يرقب أعين الفاحصين من الأطباء ويسألهم ، ويطالع وجه زوجه ساعة بعد ساعة ، ويسأل الممرضين ، ويزور أضرحة الأولياء ويفسر الأحلام ، ملتمساً الطمأنينة في مظانها جميعاً ...

وهل ينسى الليالي التي قضاها مسهداً قلقاً لا يغمض له جفن ينظر بمصر حائر إلى الوجه الشاحب على ضوء المصباح الأحمر الخافت ؟ ... وكانت هي مسكينة تستحق الرثاء ، تضطرب بين النوم القلق واليقظة الحائرة ، وبين النزاع والهذيان ، وما هذا الهذيان ! ... إنه ظاهرة عجيبة تدل على أن الإنسان قد يخون نفسه كما يخون الآخرين . كان يصغي إليها وهي تذكر بلسان متقطع أسماء أناس وأماكن وحوادث كثيرة ، وكان شاركها شهود بعضها ، فجرى الابتسام على فيه ، وترطب الهاب عينيه المحمرتين بنظرة حنان . وفي ذات ليلة سمعها تناديه بصوت واضح قائلة : « صابر » فهرع إليها متسائلاً : « نعيمة ... هل تحتاجين إلى شيء ؟ » ولكنه أدرك أنه خدع لأنها كانت مغمضة العينين يابسة الفم كما يبدو من ازدراد ريقها بصعوبة ، فعلم أنها ماضية في هذيانها الذي لا ينتهي فعاد إلى سريره ، وما كاد يرقد مرة أخرى حتى سمعها تقول وكأنها تحادثه : « صابر ... أنا متألمة خجلة » فهز رأسه المثقل المتعب وقال لنفسه : « أنت متألمة بغير شك . أعانك الله على ما أنت فيه ، ولكن لم تخجلين ! إن هذا الابتلاء لا يخجل أحداً وإن كان يحزننا جميعاً » وظن أنها تألم لما يتكلفه من حولها من العناء والسهر ، فرمقها بنظرة حنان ورجا أن يكون هذا الشعور من آي اليقظة والشفاء ؛ واستدركت المرأة تقول : « زوجي أحسن الأزواج ؛ أما أنا فشقية ... لست أهلاً لوفائه » فتنهد الشاب حزناً وتمتم قائلاً بصوت غير مسموع : « أنت أهل لكل خير » . وأراد أن يناديها لعله ينتشلها من تيار أفكارها المحمومة ، ولكنها حركت رأسها بعنف على الوسادة وقالت بحنق : « راشد ... كفى وابتعد عني ... إبتعد ودعني ... » وكان يهم بمناداتها فاحتبس الكلام في فيه ، وحملقت عيناه المسهدتان ، وبدا على وجهه الذهول والإنكار وجلس في فراشه وهو يتساءل :

رأى أحد هؤلاء الأقطاب — محصوراً فى قوله تعالى : (فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون)[٨] »

وصنيع كل من السابقين والحديثين هذا ، وهو جنب الدين نحو الأفكار الفلسفية وشرح العقيدة وحقائقها بآراء الفلاسفة ، شىء آخر يختلف اختلافاً جوهرياً من محاولة تعليل مبادئ دين من الأديان مما يسمى « حكمة التشريع » ، ويختلف كذلك عن تعليل العاطفة الدينية فى الإنسان وضرورة وجود الدين فى الجماعة البشرية تبعاً لذلك مما يسمى « سيكولوجية الدين »

فتعليل مبدأ الزكاة فى الإسلام مثلاً ، وجعل حظ الذكر فى الميراث مثل حظ الأنثيين ، ومبدأ صلاة الجماعة والحج ... وتعليل : لماذا كانت طبيعة الدين تحتم وجود أمور تعبدية فى العقيدة ؟ أو لماذا كان الدين ضرورة اجتماعية وعنصراً أساسياً فى التنشئة والتهذيب ؟ أو لماذا كان القانون المستمد من الدين أشد أثراً على النفوس من القانون الوضعى به ؟ تعليل مثل هذه الأشياء غير شرح الحقائق الدينية التى ترد فى أصل العقيدة وفى كتاب العقيدة غير محددة وغير معرفة تعريفاً منطقياً — ويجب أن تبقى غير معرّفة ، لأن فى عدم تعريفها أساس أبديتها وأساس عمومها — بشروح مستمدة من محيط الفلسفة كما تقدم

وما عنيته للآن بالكلام تحت عنوان « الدين والفلسفة » هو جنب الدين نحو الفلسفة، ومحاولة شرح حقائق العقيدة بالآراء الفلسفية

والآن نلق السؤال مرة أخرى : هل مثل هذا الصنيع يساعد على نمو طبيعة الدين ، ومن خصائصها أن يكون وأن يبقى ميسراً سهلاً ؟ وهل مثل هذا الصنيع يساعد على تحقيق غاية الدين وهى تتجلى فى التفاف الجماعة حوله من غير تحزب ولا تعصب لتأويل معين فى حقيقة وردت مجملة من حقائقه ؟ أم أن مثل هذا الصنيع سبب من أسباب تعقيد العقيدة وإبهامها على كثير من الناس ؟

وأعتقد أن فى المحاضرة التى أذاعها الأستاذ الكبير الشيخ شلتوت وكيل كلية الشريعة منذ أسبوعين من محطة الإذاعة للحكومة المصرية عن « موقف المسلمين من القرآن وموقف القرآن من المسلمين » ما يلقى كثيراً من الضوء على فهم طبيعة الدين وفهم غاية الدين . ولو تفضل بنشرها على صفحات « الرسالة »[١] لاتضح — أكثر من الآن — قيمة تفلسف العقيدة ، وتحدد — بشىء أكثر من الدقة — أثره فى تفلسف العقيدة نفسها ، إيجاباً أو سلباً

وهو لما له من شخصية علمية دينية ناضجة ، إن فعل لا شك أنه يؤدى خدمة جليلة للبحث العلمى فى تراثنا الإسلامى ، والبحث العلمى فى هذا التراث غايتنا وغايته وغاية شباب الأزهر الحديث

محمد البهى

مدرس علم النفس والفلسفة بكلية أصول الدين

(٨) المصدر السابق ج ٤ من المجلد الحادى عشر ص ٢٢٨

(١) تعتقد الرسالة أن الأستاذ شلتوت لسان صادق من ألسنة الاصلاح الدينى فى هذا العصر ، فانا أيد الرسالة فى دعوتها الاصلاحية بقلمه ولسانه كسبت منه ما كسبته الدعوى الكبرى من عمر (المحرر)

اضمحلال القوى ان الأعصاب المتعبة تصاب بالكآبة وانقباض النفس وتلاشى نشاط الرجولة قبل الأوان « مرحلة النورستانيا الثانية » ولكن بعد اجراء ابحاث علمية مستفيضة مدى عدة سنين ، نجح جناب العالم الأخصائى فى المسائل التناسلية الدكتور ماجنوس كبير شغله فى ايجاد وسيلة فعالة لمكافحة هذه المرحلة وبعد الاختبار والتجربة الكافية يقدم للجمهور مستحضر : لوكوبيطس وهو اول مستحضر علمى يحتوى بكيفية مضمونة على الهرمون الحقيقى لتجديد الشباب بحالة ثابتة متعادلة ويعمل دائما تحت رقابة المعهد الرسمى للتناسليات بمدينة برلين . اقرأ الكتيب العلمى « الحياة الجديدة » فهو يعالج كثيراً من الأمور التى قد تجهلها الى الآن عن الحياة التناسلية وترسل النسخة الانجليزية او الفرنسية مجانا بالمجان بالبريد مع رسوم زاد محسنة الوان نظيرة والنسخة العربية ٣ جالانهو رمين ، عنبر ورقم بوستة ٢١٠٥ بمصر

اقرأ .... زيادة الحساسية فابلة للشفاء بواسطة العلاج العلمى الحديث الذى اكتشفه العلامة ماجنوس كبير شغله

مجانا سوف تقطع هذا الكوبون وارسله الى عنبر ورقم بوستة ٢١٠٥ بمصر مع ارسال طابع بمبلغ مليم لتأخذ نسخة مجانا من كتاب الحياة الجديدة

(س . ت ٥٢٢٧)